المزاح في حياة رسول الله ﷺ

المـزاح: هو القولُ الذي يُقال بقصـد إثارة الضحك واللهو، أو هو السـلوك المضحك والدعابة والنكتة، وقد كان الحبيـب ﷺ يغلـب عليـه الجدّ والوقـار، إلا أنه كان يمـزح مـن حيـنٍ لآخر، لأنـه أيضًا بَشَـرٌ، بيدَ أنـه كان لا يقـول فـي مزاحه إلا الحـقّ، فكان يتجنّـب المزاح الذي يجـرح النـاس ويقلّل من شـأنهم، وكان لا يمـزح مزاحًا ثقيـلًا يجرح مشـاعر الآخرين، وقـد كان يمازح أزواجه، والفقـراءَ والمسـاكين الذين لا يبالي بهـم أحدٌ، ويلاعب الأطفـال ويداعبهـم، إلا أنـه ﷺ كان لا يمـازح أكابـر الصحابـة أمثـال أبي بكر وعمر وعثمـان وعلي رضي الله عنهم نظرًا للمسؤوليّة الكبرى الملقاةِ على عواتقهم.

أ. المقاييس التي اتبعها الرسول ﷺ أثناء المزاح

١- قول الحقّ

عندما ندرس حياته ﷺ نجد أنه كان يمزح مع الناس، بيد أنه كان يراعي مقاييسَ معيّنةً في المزاح، ونلاحظ كذلك أن مزاح النبيّ ﷺ لا يخرج عن نطاق الصدق والحقيقة، فهو لم يُدخِلْ إلى مزاحه الكذب قطّ، حتى وإن كان كذبًا بسيطًا للغاية بهدف الترفيه والفكاهة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: "قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا، قَالَ ﷺ: **إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا**"(١٩٤). وفي حديثٍ آخر ينهى عن الكذب وإن كان مزاحًا فيقول ﷺ "**وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ**"(١٩٥).

٢- تقبّله المزاح المعقول والردّ عليه

كان الرسول ﷺ يرحّب بمزاح أصحابه له، بل ويُقابل ذلك بتسامحٍ ولطفٍ وطلاقة وجه، فقد كان رسول الله ﷺ يتقبّل من المزاح ما لا يقلّل من شأن الناس أو يكون مبالغًا فيه، بل إنه كان في معظم الأحيان يردّ عليهم بالمثل، فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ ﷺ، قَالَ: "أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّ وَقَالَ ﷺ: **ادْخُلْ** فَقُلْتُ: أَكُلِّي يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: **كُلُّكَ** فَدَخَلْتُ"(١٩٦).

وكما نرى في الحديث السابق فقد قابل النبيّ ﷺ المزاح بالمثل، فقد كان باستطاعته أن يقول "أدخل برأسك فقط" أو " أدخل بقدميك فقط" إلا أنه رحّب بمزاح عوفٍ وقابله بالمثل من البشاشة والممازحة، وعلينا كذلك أن نعلم أن المبالغة فى المزاح وعدم مراعاة الزمان والمكان تحطّ من قدر

(١٩٤) سنن الترمذي، البرّ والصلة، ٥٧.

(١٩٥) سنن أبي داود، الأدب، ٨٠.

(١٩٦) سنن أبي داود، الأدب، ٨٤.

المتحدّث لدى السامعين، ولذا علينا أن نتبادل المزاح مع الآخرين دون الإخلال بالمعايير الأخلاقيّة حتى لا نخرج عن حدود الصدق والحقيقة.

مزاح "نُعَيمَان" الأنصاري

نُعيمان الأنصاريّ هو: صحابيٌّ معروفٌ بأنه خفيف الظلّ، وكان إذَا دَخَلَ السُّوقَ طُرْفَةٌ مِنْ رُطَبٍ أَوْ فَاكِهَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، اشْتَرَاهُ فَأَهْدَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ فَقِيرًا، فَإِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ النَّهَارِ؛ رَاحَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ صَاحِبُ الْحَقِّ، فَيَقُولُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! أَعْطِ هَذَا حَقَّهُ مِنْ ثَمَنِ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **أَوَمَا أَهْدَيْتَهُ إِلَيْنَا يَا نُعَيْمَانُ؟!** فَيَقُولُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ؛ مَا مَعِي قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ فَلَمْ تَطِبْ نَفْسِي أَنْ أَجُوزَهُ وَأَدَعَهُ أَوْ يَشْتَرِيَهُ أَحَدٌ فَيَأْكُلُهُ قَبْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَيَضْحَكُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَيَأْمُرُ لَهُ بِدَفْعِ حَقِّ الرَّجُلِ إِلَيْهِ [١٩٧].

مزاح سيدنا صهيب الرومي

يروي لنا الصحابيّ الجليل صهيب الروميّ ﷺ الذي كان يميل للمزاح والدعابة فيقول: "قَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ خُبْزٌ وَتَمْرٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **ادْنُ فَكُلْ**، فَأَخَذْتُ آكُلُ مِنَ التَّمْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **تَأْكُلُ تَمْرًا وَبِكَ رَمَدٌ؟** قَالَ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَمْضُغُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ" [١٩٨].

٣- عدم ترويع الناس بالمزاح

موقف الرجل الذي نسي حذاءه

لم يكن يرغب النبيّ ﷺ في ترويع أو إخافة مؤمنٍ قطّ حتّى وإن كان من قبيل المزاح ولذلك كان من حينٍ لآخر يُنبّه ويحذّر أصحابه من مغبّة الوقوع

(١٩٧) انظر كتاب "المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار"، ص ١٠٢١؛ انظر ايضًا كتاب "المجالسة وجواهر العلم" ٣/١١٥.

(١٩٨) سبق تخريجه، حاشية رقم (١٨٩).

بمثل ذلك المحذور، فعَنْ أَبِي حَسَنٍ ﷺ -وَكَانَ بَدْرِيًّا عَقَبِيًّا- قَالَ: ''كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَامَ رَجُلٌ وَنَسِيَ نَعْلَيْهِ، فَأَخَذَهُمَا رَجُلٌ فَوَضَعَهُمَا تَحْتَهُ، فَرَجَعَ الرَّجُلُ فَقَالَ: نَعْلِي، فَقَالَ: الْقَوْمُ مَا رَأَيْنَاهُمَا، فَقَالَ رَجُلٌ: هُوَ ذِهْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **كَيْفَ بروعةِ الْمُؤْمِنِ!** فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا صَنَعْتُهُ لَاعِبًا، فَقَالَ ﷺ: **كَيْفَ بروعةِ الْمُؤْمِنِ؟! مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا**''[١٩٩]، فقد قال النبيّ ﷺ: ''**كَيْفَ بروعةِ الْمُؤْمِنِ؟!**'' وكرّرها ثلاثًا حتى يلفت أنظار الناس إلى حتميّة منع وتحريم إخافة المؤمن، ونلاحظ في الحديث كذلك أنه لم يأت بجواب كلامه فلم يقل مثلًا ''كيف بروعة المؤمن لو فعل كذا أو كذا'' وإنما ترك للناس مساحةً للتدبّر والتفكّر في النتائج، ممّا يعني أن إخافةَ المؤمن وترويعَه ليس مستساغًا بتاتًا، حتى وإن كان على سبيل المزاح، وقد أكّد الطبّ الحديث أن ضغط الدم يرتفع بسبب الإحساس المفاجئ بالخوف، فمن لديه مرض القلب قد يُصاب بأزمةٍ قلبيّةٍ نتيجةً لذلك، وممّا يلفت النظر هنا أن النبيّ ﷺ قد نهى عن ذلك قبل ألفٍ وأربعمائة عام وأمر أن يكون المزاح في حدود المعايير الأخلاقيّة دون إفراط.

موقف الرجل الذي كان يُمزح معه وهو نائم

يقول النعمان بن بشيرٍ ﷺ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَسِيرٍ، فَخَفَقَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَتِه، فَأَخَذَ رَجُلٌ سَهْمًا مِن كِنَانَتِه، فَانْتَبَه الرَّجُلُ فَفَزِعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ''**لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا**''[٢٠٠].

موقف الرجل الذي مازحه الصحابة في المسجد

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدَ ﷺ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ قَرَنٌ، فَأَخَذَهَا بَعْضُ الْقَوْمِ، فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: فَأَيْنَ الْقَرَنُ؟ فَكَأَنَّ

(١٩٩) الطبراني: المعجم الكبير، ٣٩٤/٢٢.

(٢٠٠) الطبراني: المعجم الكبير، ١١٦/٢١.

بَعْضَ الْقَوْمِ ضَحِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُرَوِّعَنَّ مُسْلِمًا**"(٢٠١)، عادةً ما يكون المزاح بقصد إبهاج الناس، وزيادة المودّة فيما بينهم، وممّا يلفت الانتباه هنا أن طبع الناس يختلف من شخصٍ لآخر، فبعضهم مرحون يحبّون المزاح والصحبة الحسنة، والبعض الآخر حادّ الطبع جدّي لا يتحمّل المزاح أو يصبر عليه، بالإضافة إلى ذلك لا أحدَ يقبل أن يُقلّل من قدره أن يُهان أو يُسخر منه وإذا ما نظرنا للأمر من هذه الناحية سنجد أنه لا يجوز أن يصل المزاح إلى درجة إهانة المرء وجرح مشاعره، فلا ينبغي للإنسان أن يُعامل الناس بما لا يحبّ أن يعاملوه به، ومن ثمّ يجب أن يكون المزاح مقيّدًا بالضوابط والمعايير المنطقيّة والعقلية، وخيرُ مَن يُجسّد ذلك هو سلوك نبيّنا محمد ﷺ فإذا استقرأنا أحواله نجده كان يمزح ويتقبّل المزاح بتسامحٍ ولطفٍ بالغٍ، بيد أنه لا يقول في مزاحه إلا الحقّ، وأن مزاحه لا يشتمل على الغمزِ واللّمْزِ ولا على إحراجِ الآخرين أو جرحِ مشاعرِهم أو انتقاصِهم والتقليلِ من شأنهم.

ب. الأشخاص الذين مازحهم النبي ﷺ

١- الأطفال

مزاحُه مع أبي عُمير رضي الله عنه

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: "كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَيْنَا وَلِي أَخٌ صَغِيرٌ يُكْنَى أَبَا عُمَيْرٍ وَكَانَ لَهُ نُغَرٌ يَلْعَبُ بِهِ، فَمَاتَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَرَآهُ حَزِينًا، فَقَالَ ﷺ: **مَا شَأْنُهُ؟** قَالُوا: مَاتَ نُغَرُهُ، فَقَالَ ﷺ: **يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**"(٢٠٢).

(٢٠١) الطبراني: المعجم الكبير، ٩٩/٧.

(٢٠٢) صحيح البخاري، الأدب، ٨١ و١١٢؛ سنن أبي داود، الأدب، ٦٨، (واللفظ له).

تزوّجت أمّ أنس بن مالك من أبي طلحة، وأنجبت منه أبا عمير، فكان أبو عمير أخًا لأنس بن مالك من أمّه، وقد كان لديه طائرٌ يُشبه عصفور "النَّغْرِ"(٢٠٣)، له منقارٌ أحمر، ولما مات حزن أبو عمير لموته حزنًا شديدًا، ومن ثمّ كان الرسول ﷺ يمازح أبا عميرٍ كلّما رآه محاولًا إسعاده وإدخال السرور إلى قلبه فيقول "**يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**".

والأمر الذي تجب مراعاته هنا هو:

كان الرسول ﷺ عندما يمازح الأطفال لا يقول إلا الحقّ، كما أن مزاحه لم يكن مزاحًا يؤذي أو يُهين.

مزاحه مع أنسٍ رضي الله عنه

كان رسول الله ﷺ يمزح من حينٍ لآخر مع أنس بن مالك رضي الله عنه -الذي نال شرفَ صحبتِه منذ طفولته، وخدمته لمدّةِ عشر سنوات، كما جاء في الرويات- ويقول له "يا ذا الأذنين" وكما نرى فإن الرسول ﷺ كان يُلقِّب الأطفال بألقابٍ لا تزعجهم حينما يمزح معهم، وكما كان يُلقّب أنس ابن مالك بـ"ذي الأذنين" كان يُلقّب أيضًا أخاه الأصغر لأمّه بأبي عمير.

مزاحه مع محمّد بن ربيع

يروي لنا محمد بن ربيع حادثة مع رسول الله ﷺ يتذكّرها من أيام طفولته فيقول: "عَقَلْتُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ مَجَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِي وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ مِنْ دَلْوٍ"(٢٠٤)، وهنا نجد الرسول ﷺ ينزل إلى مستوى الأطفال ويمازحهم بالأسلوب الذي يفهموه، ويشاركهم لعبهم ولهوهم، وهذا يدلّ على مدى حبّه ﷺ لهم وعلاقته بهم، وكأنّه قد صار طفلًا مع

(٢٠٣) النغر: البلبل، جنس عصافير غِرّيدة من فصيلة الشُّرشوريات، أنواعه عديدة وجميعُها صغيرة الحجم لونها إلى الصُفرة، تألف القفص وتقتبس أدب التغريد.

(٢٠٤) صحيح البخاري، العلم، ١٨.

الأطفال، كما أنه ﷺ يمثّل لنا قدوةً حسنةً في مسألة رعاية الأبوين للأطفال والرفق بهم واللين معهم في ذلك المجتمع العربيّ الذي كان يعتبر اللعب مع الأطفال أمرًا لا أهمّيّة أو ضرورة له.

٢- نساؤه

مزاحه مع نسائه أثناء السفر

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، أَتَى عَلَى أَزْوَاجِهِ وَسَوَّاقٌ يَسُوقُ بِهِنَّ يُقَالُ لَهُ: أَنْجَشَةُ، فَقَالَ ﷺ: **وَيْحَكَ يَا أَنْجَشَةُ رُوَيْدًا سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ**"[٢٠٥]، ظنّ الرسول ﷺ أن نساءه قد يمسّهنّ الضرّ والأذى من سرعة الجمال، فأوعز إلى خادمه وأمره بالرفق في المسير، وعبّر -على سبيل الفكاهة- عن أهمّيّة نسائه وعن مكانة المرأة عمومًا في المجتمع واصفًا إياهنّ بـ"القوارير"، ملاطفةً منه لهنّ، وتوضيحًا منه على مدى أهمّيّتهنّ.

مشاركته ﷺ السيّدة "عائشة" وأمّنا "سودة" ﵄ في مُزاحهما:

عن عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: "أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِخَزِيرَةٍ قَدْ طَبَخْتُهَا لَهُ، فَقُلْتُ لِسَوْدَةَ -وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَهَا-: كُلِي، فَأَبَتْ، فَقُلْتُ: لَتَأْكُلِنَّ أَوْ لَأُلَطِّخَنَّ وَجْهَكِ، فَأَبَتْ، فَوَضَعْتُ يَدِي فِي الْخَزِيرَةِ، فَطَلَيْتُ وَجْهَهَا، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَوَضَعَ بِيَدِهِ لَهَا، وَقَالَ لَهَا ﷺ: **الْطَخِي وَجْهَهَا**، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ لَهَا، فَمَرَّ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ، يَا عَبْدَ اللهِ، فَظَنَّ أَنَّهُ سَيَدْخُلُ، فَقَالَ ﷺ: **قُومَا فَاغْسِلَا وُجُوهَكُمَا**"[٢٠٦]، كان الحبيب ﷺ يتحرّى العدل حتى في مزاحه، فها هو ينصف الضرّة من ضرّتها حتّى في المزاح، ولو أنه لم ينصف لوقع

(٢٠٥) صحيح مسلم، الفضائل، ٧٠.

(٢٠٦) أبو يعلى، المسند، ٤٤٩/٧.

بين الزوجتين خلافٌ لا يعلمه إلا الله، غير أنه بمقابلة مزاح زوجته السيدة عائشة ﵂ بمزاحٍ مثله من السيدة سودة ﵂؛ قد حال دون وقوع مثل هذا الخلاف بينهما.

مزاحه مع السيدة عائشة ﵂:

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: "خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: **تَقَدَّمُوا**، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: **تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: **تَقَدَّمُوا**، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: **تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**، فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: **هَذِهِ بِتِلْكَ**"(٢٠٧)، كان النبيّ ﷺ يفعل ما يَخجل رجال اليوم من فعله ويجدونه غريبًا، فيُوضّح للناس بطريقةٍ عمليّةٍ مدى تقديره لنسائِه وحبّه لهنّ بالرغم من أن المرأة لم تكن تتمتّع بالمكانة المرموقة في ذلك العهد، إلا أن الرسول ﷺ أكّد بسلوكيّاته تلك أن المرأةَ جزءٌ لا يتجزّأ من المجتمع، ولها أن ترافقَ زوجها في أسفاره وأن تنال نصيبها من المزاح والدعابة.

إنقاذه ﷺ السيدة عائشة من يد أبيها أبي بكر ﵁:

يقول النعمان بن بشير ﵁: "اسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعَ صَوْتَ عَائِشَةَ عَالِيًا، فَلَمَّا دَخَلَ تَنَاوَلَهَا لِيَلْطِمَهَا، وَقَالَ: أَلَا أَرَاكِ تَرْفَعِينَ صَوْتَكِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْجِزُهُ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُغْضَبًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ: **كَيْفَ رَأَيْتِنِي أَنْقَذْتُكِ مِنَ الرَّجُلِ؟** قَالَ: فَمَكَثَ أَبُو بَكْرٍ أَيَّامًا، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ

(٢٠٧) سنن أبي داود، الجهاد، ٦١؛ مسند الإمام أحمد، ٣١٣/٤٣؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٥٣١/٦.

فَوَجَدَهُمَا قَدِ اصْطَلَحَا، فَقَالَ لَهُمَا: أَدْخِلَانِي فِي سِلْمِكُمَا كَمَا أَدْخَلْتُمَانِي فِي حَرْبِكُمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **قَدْ فَعَلْنَا قَدْ فَعَلْنَا**"(٢٠٨).

٣- الفقراء

مزاحه مع رجلٍ يُدعى "زاهرًا"

عَنْ أَنَس بن مالكٍ ﷺ "أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ زَاهِرًا، وَكَانَ يُهْدِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْهَدِيَّةَ مِنَ الْبَادِيَةِ، فَيُجَهِّزُهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا، وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ**، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَلَا يُبْصِرُهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: أَرْسِلْنِي مَنْ هَذَا، فَالْتَفَتَ فَعَرَفَ النَّبِيَّ ﷺ، فَجَعَلَ لَا يَأْلُو مَا أَلْصَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ عَرَفَهُ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: **مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟** فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذًا وَاللهِ تَجِدُنِي كَاسِدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لَكِنْ عِنْدَ اللهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ** أَوْ قَالَ: **لَكِنْ عِنْدَ اللهِ أَنْتَ غَالٍ**"(٢٠٩).

لقد كان زاهرٌ رجلًا حرًّا، لكنّ الرسول ﷺ ناداه -ممازحًا- في الحديث بالعبد يقصد عبدَ الله، وهو يودّ بمزاحه هذا أن يرفع من شأنه وأن يلقننا درسًا مفاده: "لا تسخروا من هؤلاء القوم، بل اهتموا بهم" وهذه وجهة نظرٍ مهمّةٌ من ناحيتين، الناحية الأولى: محاولات إعادة تأهيل الأشخاص المحتاجين للرعاية والاهتمام داخل المجتمع.

والناحية الثانية: أنّ مثل هذه الفعاليّات يكون سببًا مهمًّا لانبعاث الأمل في قلوب البسطاء والمساكين، خاصّةً من يحتاجون لاهتمام المجتمع من

(٢٠٨) سنن أبي داود، الأدب، ٨٤.

(٢٠٩) مسند الإمام أحمد، ٩٠/٢٠، (واللفظ له)؛ معمر بن راشد: الجامع، ٤٥٤/١٠؛ صحيح ابن حبّان، ١٠٦/١٣؛ البيهقي: السنن الكبرى، ٢٨٠/٦.

المعاقين أو فاقدي بعض أعضائهم أو حواسّهم، ومن يشعرون بالاحتياج إلى حبّ المجتمع ورعايته، فيكون ذلك باعثًا لهم على حبّ الحياة والتمسّك بها رغم كل ما يُقاسونه من آلامٍ، فمن الضروريّ جدًا لكي نستطيع إعادةَ تأهيلهم داخل المجتمع، أن نلقي التحيّة عليهم، ونسأل عن حالهم بل ونمزح معهم.

٤- مزاحه مع مَن يخطبون وُدَّهُ

مزاحه مع رجل

عَنْ أَنَسِ بن مالكٍ ﷺ "أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، احْمِلْنِي، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِنَّا حَامِلُوكَ عَلَى وَلَدِ نَاقَةٍ**، قَالَ: وَمَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلَ إِلَّا النُّوقُ**"(٢١٠).

مزاحه مع امرأةٍ عجوز

عن الحسنِ البصريّ ﷺ أنه قال: أتَتْ عجوزٌ إلى النبيّ ﷺ فقالت: يا رَسُولَ اللهِ أدعُ اللهَ أن يُدْخِلَنِي الجنّةَ، فَقَالَ: "**يا أُمَّ فلان! إنّ الجَنَّةَ لا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ**" قالَ: فَوَلّتْ تَبْكِي، فَقَالَ: "**أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لَا تَدْخُلُهَا وَهِيَ عَجُوزٌ إِنَّ اللهَ تَعالَى يَقُولُ: إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُبًا أَتْرَابًا**"(٢١١).

مزاحه مع شاعرٍ

رُوي أن النبي ﷺ لما أعطى أَبَا سُفْيَانَ وَعُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ ﷺ يوم خيبر ما أعطى أنشد العباس بن مرداس ﷺ قائلًا:

(٢١٠) سنن أبي داود، الأدب، ٨٤؛ مسند الإمام أحمد، ٣٢٣/٢١؛ أبو يعلى: المسند، ٤١٢/٦.

(٢١١) الترمذي: الشمائل المحمدية، ١٤٤.

أتجعل نهبي ونهبَ العبيـ ... ـدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ؟

وَقَدْ كُنْتُ فِي الْقَوْمِ ذَا ثَرْوَةٍ ... فَلَمْ أُعْطَ شَيْئًا وَلَمْ أُمْنَعِ

فقال رسول الله ﷺ: **لأَقْطَعَنَّ لِسَانَكَ**، وَقَالَ لِبِلالٍ: **إِذَا أَمَرْتُكَ أَنْ تَقْطَعَ لِسَانَهُ فَأَعْطِهِ حُلَّةً**، ثُمَّ قَالَ: **يَا بِلالُ اذْهَبْ بِهِ فَاقْطَعْ لِسَانَهُ**، فَأَخَذَ بِلالٌ بِيَدِهِ لِيذهبَ بِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيَقْطَعُ لِسَانِي؟ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ أَيَقْطَعُ لِسَانِي؟ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ أَيَقْطَعُ لِسَانِي؟! وَبِلالٌ يَجُرُّهُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ قَالَ: إِنَّمَا أَمَرَنِي أَنْ أَكْسُوَكَ حُلَّةً أَقْطَعُ بِهَا لِسَانَكَ، فَذَهَبَ بِهِ فَأَعْطَاهُ حُلَّةً"[٢١٢].

وأخيرًا فإن المزاح يجب ألا يخرج عن بعض القيود الأخلاقية، فإذا أردنا أن نمازح أحدًا فليكن مزاحًا معقولًا غير مبالغٍ فيه ولا جارح، كما يجب علينا -بالمقابل- أن نتقبّل المزاح من الآخرين بكلّ ودٍّ وسماحةٍ، وألّا نقول في مزاحنا إلا الحقّ، وألا نمزح مزاحًا يقلّل من شأن الناس ويُهينهم، وألّا نكذب أو نخادع أو نروّع أحدًا وإن كان مزاحًا.

(٢١٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٤/٢٠٦.

القسم السادس

آداب رسول الله ﷺ في النوم

نومُ رسول الله ﷺ واستلقاؤه

النوم: هو فترة راحة البدن والعقل، تغيب خلالها الإرادة والوعي جزئيًا أو كليًا، وتتوقف فيها جزئيًا الوظائف البدنية.

إن النوم نعمة من الخالق على الخلق، ذاك أن الجسد الذي يعمل ويكدح نهارًا؛ يستعيد نشاطه وحيويّته عندما يستريح ليلًا، ولقد ذُكر النوم في القرآن الكريم على محاور متعدّدة، فمثلًا في آية الكرسيّ التي تبيّن هيمنته وعظمتَه يقول ﷻ ﴿...لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ...﴾[٢١٣] فتبيّن من خلال هذه الآية الكريمة أن الخالق أوجد النوم لخلقه، وأنه ﷻ منزّهٌ عن مثل هذه الصفات الناقصة، وقوله تعالى أيضًا ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾[٢١٤]، ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾[٢١٥]، يوضّح أنّ النهار قد خُلق للعمل من أجل استمرار الحياة، أما الليل فهو وقت الراحة والنوم، وهو نعمةٌ للبشر، وأنه حالٌ من أحوال الموت،

(٢١٣) سورَةُ البَقَرَة: ٢/٢٥٥.
(٢١٤) سورَةُ الفُرْقَانِ: ٢٥/٤٧.
(٢١٥) سورَةُ النَّبَأ: ٧٨/١٠-١١.

والاستيقاظ منه بعثٌ جديدٌ، وفي قوله ﷻ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢١٦]، يذكرنا الخالق بأن هناك بَعْثًا قادمًا لا محالةَ بعد الاستغراق في السبات العميق، وأنّ ما بعد البعث حسابٌ دقيقٌ لا مناص منه.

أ. فراشه ﷺ

يتكوّن السرير من ثلاثة أجزاءٍ؛ فراش ووسادة وغطاء -لحاف-، ولقد كان فراشُ السيدة عائشة ﵂ عبارةً عن جلدٍ مدبوغٍ، وكان حشوُه من "ليف البلح" بدلًا من الصوف والقطن، ووسادتُه أيضًا من نفس الخامة، وعندما سُئلت السيدة عائشة ﵂ كيف كان فراش الرسول ﷺ قالت: "إِنَّمَا كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ أَدَمًا حَشْوُهُ لِيفٌ"[٢١٧]، وفي رواية أخرى سُئِلَتْ حَفْصَةُ ﵂: "مَا كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِكِ؟ قَالَتْ: مَسْحًا نَثْنِيهِ ثَنْيَتَيْنِ فَيَنَامُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ قُلْتُ: لَوْ ثَنَيْتِهِ أَرْبَعَ ثَنَيَاتٍ كَانَ أَوْطَأَ لَهُ، فَثَنَيْنَاهُ لَهُ بِأَرْبَعِ ثَنَيَاتٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ، قال ﷺ: **مَا فَرَشْتُمُونِي اللَّيْلَةَ؟** قالت: قُلْنَا: هُوَ فِرَاشُكَ، إِلاَّ أَنَّا ثَنَيْنَاهُ بِأَرْبَعِ ثَنَيَاتٍ، قُلْنَا: هُوَ أَوْطَأُ لَكَ، قال ﷺ: **رُدُّوهُ لِحَالِهِ الأُولَى، فإنه منعَتْنِي وَطْأَتُهُ صَلَاتِي اللَّيْلَةَ**"[٢١٨].

الفراش الذي أحضرته المرأة الغنيّة

عنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: "دَخَلَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَيَّ، فَرَأَتْ فِرَاشَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَبَاءَةً مَثْنِيَّةً، فَانْطَلَقَتْ فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ بِفِرَاشٍ حَشْوُهُ صُوفٌ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فقال: مَا هَذَا؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ فُلانَةُ الأَنْصَارِيَّةُ

(٢١٦) سورة الأنعام: ٦/٦٠.

(٢١٧) صحيح مسلم، اللباس، ٣٨.

(٢١٨) الترمذي: الشمائل المحمدية، ١٨٨.

دَخَلْتُ عَلَيَّ فَرَأَتْ فِرَاشَكَ فَذَهَبَتْ فَبَعَثْتُ بِهَذَا، فَقَالَ ﷺ: **رُدِّيهِ، فَلَمْ أَرُدَّهُ، وَأَعْجَبَنِي أَنْ يَكُونَ فِي بَيْتِي، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ ﷺ: وَاللهِ يَا عَائِشَةُ لَوْ شِئْتُ لأَجْرَى اللهُ مَعِي جِبَالَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**"(٢١٩).

حزن الفاروق عمر ﷺ لنوم النبيّ ﷺ على الحصير

عن عُمَر بْن الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: "دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ، قَالَ: فَجَلَسْتُ، فَإِذَا عَلَيْهِ إِزَارٌ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، وَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَقَرَظٍ فِي نَاحِيَةٍ فِي الْغُرْفَةِ، وَإِذَا إِهَابٌ مُعَلَّقٌ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، فَقَالَ ﷺ: **مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟** فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي؟ وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَلِكَ كِسْرَى، وَقَيْصَرُ فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَصَفْوَتُهُ، وهذه خزانتك! قَالَ ﷺ: **يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ، وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟** قُلْتُ: بَلَى"(٢٢٠).

حُزن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ لنومه ﷺ على الحصير

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعودٍ ﷺ قَالَ: "اضْطَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ، عَلَى حَصِيرٍ فَأَثَّرَ فِي جِلْدِهِ، فَقُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ كُنْتَ آذَنْتَنَا فَفَرَشْنَا لَكَ عَلَيْهِ شَيْئًا يَقِيكَ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَا أَنَا وَالدُّنْيَا؟.. إِنَّمَا أَنَا وَالدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**"(٢٢١).

يتّضح تمامًا من خلال الأحاديث السابقة أنّ الرسول ﷺ عادةً ما كان يُفضّل النوم على الفراش الصلب، ويتجنّب الفراش الناعم الذي يدعو إلى الفتور والتراخي، كما نجد أيضًا أن الأطبّاء المعاصرين يوصون بالفُرُش

(٢١٩) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١/٣٦٠.

(٢٢٠) سنن ابن ماجه، الزهد، ١١.

(٢٢١) سنن ابن ماجه، الزهد، ٣.

الصلبة من أجل تخفيف معاناة المرضى الذين يُعانون من آلام الظهر والخصر، إلّا أننا لا نصادف في كتب الأحاديث أن الرسول ﷺ قد أمر أصحابه بذلك.

ب. نومه ﷺ

كان المصطفى ﷺ ينام كأيّ إنسانٍ آخر، وكان عادةً ما ينام جزءًا من الليل من بعد صلاة العشاء وقبل الفجر، وفيما عدا ذلك كان ينام مقدار ساعةٍ بعد صلاة الظهر إذا أمكن، وهو ما يسمى "قيلولة"، وقد أخبر النبيّ ﷺ أن نوم القيلولة يساعد على أداء العبادات ليلًا حيث قال ﷺ "**اسْتَعِينُوا بِطَعَامِ السَّحَرِ عَلَى صِيَامِ النَّهَارِ، وَبِالْقَيْلُولَةِ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ**"[٢٢٢]، وكان الرسول ﷺ يكره النومَ قبل صلاة العشاء، والحديثَ بعدها[٢٢٣]، بيد أنه كان ينام متأخّرًا في المناسبات المهمّة مثل احتفالات الأعراس ومراسمها، واستقبال الضيوف.

نومه ﷺ في وقت الصباح

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ حَتَّى يَجِيءَ الْمُؤَذِّنُ فَيُؤْذِنَهُ"[٢٢٤]، لذلك فقد أصبح النوم على الجانب الأيمن سنّةً عن رسول الله ﷺ، وليس فرضًا، ومَن كان يُعاني من ألمٍ في أطرافه اليمنى فله أن ينام على شقّه الأيسر، والمهمّ في ذلك أن يكون النوم على الشقّ الأيمن من قبيل اتّباع السنّة، وألّا يكون النوم على الشقّ الأيسر كنوعٍ من اللامبالاة بالسنّة.

(٢٢٢) سنن ابن ماجه، الصيام، ٢٢.

(٢٢٣) موطأ الإمام مالك، رواية ابي مصعب الزهري، ١/١١٤.

(٢٢٤) صحيح البخاري، الدعوات، ٥.

نومه ﷺ ليلا

عَـنْ حُذَيْفَـةَ ﷺ قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنْ اللَّيْلِ وَضَـعَ يَـدَهُ تَحْـتَ خَدِّهِ ثُمَّ يَقُـولُ ﷺ: **اللَّهُمَّ بِاسْـمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا**، وَإِذَا اسْـتَيْقَظَ قَـالَ ﷺ: **الْحَمْـدُ لِلهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْـدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُـورُ**"(٢٢٥)، يدعونا الحديـث الشـريف إلى تدبّر أمرٍ مهمٍّ، وهـو أن الموت حقٌّ، وأنه يأتي من عنـد الحـقّ ﷻ، فمن لا يسـتطع أداء الصلاة قائمًا، يؤدّهـا قاعدًا، وإن لم يسـتطع فيؤدّها راقدًا على جانبه الأيمن، وكذلك فإن الميت يُدفن باتّجاه القبلـة راقـدًا علـى جانبه الأيمن، ومـن ثمّ على المرء إذا أوى إلى فراشـه أن يعِظَ ويذكّر نفسـه فيقول في داخله "النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ"، فثمّة من ناموا ولم يقوموا، وثمّة من ناموا أصحّاء وقاموا مرضى، ثم يبدأ نومه على شقّه الأيمـن، متخيّلًا نفسـه داخل القبر أو على فراش المرض، ليروّض نفسـه على الطاعة والعبادة، ثم يتضرّع إلى ربّه متأثّرًا بهذه الخشية ويقول "اللَّهم باسمك أموت وأحيا" وعندئذٍ يكون قد أدرك أن الله هو المحيي والمميت، وأن الإنسـان تنقطـع صلته بالدنيا عندما ينام، ولا يملك أن يقوم من نومه ثانيـةً إلا بإذن الله ﷻ، فـإن تدبّر المرء هذه الأمور وتأمّلها يكون قد قضى ليلته في عبادة الله، لأن التدبّر والتفكّر عبادةٌ.

ماذا كان ينعل النبيّ ﷺ عندما يستيقظ ليلًا؟

كان رَسُـولَ اللهِ ﷺ يَكْـرَهُ النَّـوْمَ قَبْلَ الْعِشَـاءِ وَالْحَدِيـثَ بَعْدَهَا، وكان الرسـول عندما يسـتيقظ ليلًا يقضي حاجته، ويغسـل يديه ووجهه، ثم ينام ثانية، كما كان أيضًا يستيقظ للعبادة، ويقضي وقته بالتضرّع والدعاء وتلاوة القـرآن وصـلاة النافلـة، وقـد كان يُكثر مـن الدعاء، ويطيل صـلاة النافلة خاصّةً إن كان يُصلّي بمفرده.

(٢٢٥) صحيح البخاري، الدعوات، ٨.

ج. كيف كان نومه ﷺ؟

كان الرسول ﷺ يُفضّل النوم على أرضٍ صلبةٍ -كما أسلفنا-، لكنّه لم يكن يغطّ ويستغرق في سباتٍ عميقٍ، وذلك لأنه ﷺ لم يغفل قطّ في أيّ لحظةٍ من حياته، وعندما يعتريه النعاس؛ كان يُسلّم عينيه الشريفتين وجسده الشريف للنوم فقط، ولا ينام قلبه أو روحه أو عقله وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: "تَنَامُ عَيْنَايَ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي"(٢٢٦).

د. الكيفيّات التي أمر بها أو نهى عنها النبيّ ﷺ في النوم

١- الأوضاع التي أمر بها عند النوم

أ. كيفيّة النوم في المنزل

النوم على الشقّ الأيمن ووضع اليد اليمنى أسفل الخدّ الأيمن:

من سُنَنِ الرسول ﷺ أنه كان يبدأ كلّ شيءٍ باليمين، ومن ثمّ كان يُفضّل النوم على الشقّ الأيمن، علاوةً على أن النوم هكذا مفيدٌ من الناحية الصحّيّة، عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ نَامَ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: **اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ** وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَنْ قَالَهُنَّ ثُمَّ مَاتَ تَحْتَ لَيْلَتِهِ مَاتَ عَلَى الفِطْرَةِ**"(٢٢٧)، كما أن فراش النبيّ كان مستقيمًا استقامة المرء في قبره، وفي هذا الشأن تروي لنا أمّ سلمة وتقول: "كَانَ فِرَاشُ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوًا مِمَّا يُوضَعُ الْإِنْسَانُ فِي قَبْرِهِ وَكَانَ الْمَسْجِدُ عِنْدَ رَأْسِهِ"(٢٢٨)، واختيار رسولنا

(٢٢٦) سنن أبي داود، الطهارة، ٧٩؛ سنن الترمذي، الفتن، ٦٣.

(٢٢٧) صحيح البخاري، الدعوات، ٩.

(٢٢٨) سنن أبي داود، الأدب، ٩٦-٩٧.

لهذه الكيفيّة في النوم دليلٌ على احترامِه وتقديسِه ﷺ للقبلة، لذلك فحريٌّ بنا نحنُ أمّته الذين ندّعي محبّته واتّباعه أن نراعي هذا الأمر ونتنبّه إليه.

أمره ﷺ لأصحابه أن يناموا على الجانب الأيمن:

عن البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَهْبَةً وَرَغْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الفِطْرَةِ فَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ"**(٢٢٩).

فقد علّم النبيُّ ﷺ الصحابي الجليل البراءَ بن عازب ما يجب عليه فعله من الآداب والأذكار قبل النوم، وهذا الموقف وإن كان قد حدث مع شخص بعينه، إلا أنه أمرٌ يشمل جميع المسلمين، وإليكم بعضُ التأمّلات الموجزة بهذا الحديث:

١- فتوضّأ

إذًا على المرء أن يتوضّأ قبل الذهاب إلى الفراش.

٢- اضطجع على شقِّك الأيمن

أفاد الأطبّاء المعاصرون أن النوم على الذراع الأيمن هو الأفضل من الناحية الصحّيّة، ذاك أن القلب والمعدة -وهما من أهمّ أعضاء الجسد- يقعان في الجانب الأيسر، وبالاضطجاع على الجانب الأيمن لن نضغط عليهما، أما الاضطجاع على الجانب الأيسر فإنه يتسبّب في الضغط عليهما، وينتج عن ذلك اضطرابات في القلب وغيرها.

(٢٢٩) صحيح البخاري، الدعوات، ٦.

٣- قلْ هذا الدعاء

وهو الدعاء المذكور في الرواية السابقة، "**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**"، والأفضل المثابرة والمواظبة على ترديد هذا الدعاء.

وهناك نُكتٌ مفيدةٌ مرتبطة بالحديث عن النوم، وهي كما يلي:

أ. الموت أثناء النوم؛ وهو أمرٌ كثير الحدوث حسب الإحصائيّات، أمّا المؤمن المتّبع لسنّة نبيّه إذا أتاه الموت وهو نائم يفرح به لأن الموت بالنسبة إليه بهذا الشكل خاتمةٌ حسنةٌ، فهو أولًا؛ نائمٌ على طهارةٍ ووضوءٍ، وثانيًا: هو نائمٌ على شقّه الأيمن وفقَ الوضعيّة التي أمرنا بها النبيّ ﷺ، فيا لَفرحته بحسن الختام.

ب. الإنسان في نومه معرّض لكل أنواع المخاطر؛ ومن ثم عليه التعوذ بالله ﷻ والالتجاء إليه بالدعاء والتضرّع إليه وطلب الحفظ والحماية والرعاية منه، وذلك بعد اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة المخاطر التي قد تحيط به مثل التعرّض للسرقة أو الآفات أو لدغ الحشرات الضارة.

ب. نومه ﷺ أثناء السفر

لقد أخبر المصطفى ﷺ أن كيفيّة نومه عندما يخرج للسفر أو غيره مختلفة بعض الشيء، فقد كان يرقد على يمينه مستندًا على ذراعه الأيمن ويضع رأسه على كفه الأيمن، فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﷺ، قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ فِي سَفَرٍ فَعَرَّسَ بِلَيْلٍ، اضْطَجَعَ عَلَى يَمِينِهِ، وَإِذَا عَرَّسَ قُبَيْلَ

الصُّبْحِ نَصَبَ ذِرَاعَهُ، وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى كَفِّهِ"(٢٣٠)، وإنما كانت كيفيّة نوم الحبيب هكذا -كما فسر بعض علماء الحديث ذلك- لأنه غالبًا ما لا يجد في سفره ما يقوم مقام الوسادة كي يضعه تحت رأسه.

ج. استراحته ﷺ

كان النبي ﷺ يستلقي على ظهره فترةً قصيرةً كي يستريح، وهي وضعيّة مريحةٌ جدًّا للجسم، فعن عبد الله بن زيد ﷺ "أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ اللهِ ﷺ مُسْتَلْقِيًا فِي الْمَسْجِدِ وَاضِعًا إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى"(٢٣١).

٢- الأوضاع التي نهى عنها

أ. النوم على البطن

نهى الرسول ﷺ عن بعض الأوضاع والكيفيّات في النوم منها النوم على البطن، فعَنْ يَعِيشَ بْنِ طَخْفَةَ بْنِ قَيْسٍ الْغِفَارِيِّ ﷺ، قَالَ: "كَانَ أَبِي مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ**، فَانْطَلَقْنَا، فَقَالَ ﷺ: **يَا عَائِشَةُ أَطْعِمِينَا**، فَجَاءَتْ بِحَشِيشَةٍ فَأَكَلْنَا، ثُمَّ قَالَ ﷺ: **يَا عَائِشَةُ أَطْعِمِينَا**، فَجَاءَتْ بِحَيْسَةٍ(٢٣٢) مِثْلِ الْقَطَاةِ فَأَكَلْنَا، ثُمَّ قَالَ ﷺ: **يَا عَائِشَةُ اسْقِينَا**، فَجَاءَتْ بِعُسٍّ(٢٣٣) مِنْ لَبَنٍ فَشَرِبْنَا، ثُمَّ قَالَ ﷺ: **يَا عَائِشَةُ اسْقِينَا**، فَجَاءَتْ بِقَدَحٍ صَغِيرٍ فَشَرِبْنَا، ثُمَّ قَالَ ﷺ: **إِنْ شِئْتُمْ بِتُّمْ، وَإِنْ شِئْتُمُ انْطَلَقْتُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ**، قَالَ: فَبَيْنَمَا أَنَا مُضْطَجِعٌ فِي الْمَسْجِدِ مِنَ السَّحَرِ عَلَى بَطْنِي إِذَا رَجُلٌ يُحَرِّكُنِي بِرِجْلِهِ، فَقَالَ ﷺ: **إِنَّ هَذِهِ ضِجْعَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ**، قَالَ: فَنَظَرْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ"(٢٣٤).

---

(٢٣٠) صحيح مسلم، المساجد، ٣١٣.

(٢٣١) صحيح البخاري، الصلاة، ٨٥.

(٢٣٢) الحيس: تمرٌ وأقطٌ وسمنٌ تُخلَطُ وتُعجَنُ وتُسوّى كالثريد.

(٢٣٣) العُس: القدح الكبير.

(٢٣٤) سنن أبي داود، الأدب، ٩٤.

ومثلما تُغضب هذه الكيفيّةُ الله ورسوله، فإنها أيضًا مضرّة من الناحية الصحيّة، وتتسبّب في الضغط على الأعضاء مثل القلب والمعدة، علاوةً على أنها مخالفة للآداب وقبيحة المشهد، وقد أوضحت بعض الروايات أن "طَخْفَةَ" والد الصحابيّ "يَعِيش" كان ينام هكذا لإصابته بمرض الرِّئة، فقد يكون البعض لا يعرفون ذلك، لكن تصريحَ النبيّ ﷺ بالنهي عن تلك الكيفيّة في النوم يدفع ويمنع الاعتقاد بأن هذه الكيفية مباحة في النوم، لذلك جاء النهي صريحًا منه ﷺ، وأخيرًا فينبغي لنا التنبّه وتجنّب مثل هذه الكيفية أثناء النوم كما كان المصطفى ﷺ يتجنّبها ويتفاداها.

ب. الاستلقاء على الظهر ووضع القدم فوق الأخرى

نهى النبي ﷺ عن الاستلقاء على الظهر ووضع القدم فوق الأخرى، وهناك رواياتٌ متعدّدةٌ في هذا الشأن، وقد ذكرنا في الفقرة الخاصّة باستراحته ﷺ حديث عبد الله بن زيد ﷺ "أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ اللهِ ﷺ مُسْتَلْقِيًا فِي الْمَسْجِدِ وَاضِعًا إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى"، وهنا سنذكر حديثين شريفين نهى فيهما ﷺ عن النوم بهذه الطريقة ففي روايةٍ عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له "...**وَلَا تَضَعْ إِحْدَى رِجْلَيْكَ عَلَى الْأُخْرَى إِذَا اسْتَلْقَيْتَ**"(٢٣٥)، وفي رواية أخرى عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ أيضًا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "**لَا يَسْتَلْقِيَنَّ أَحَدُكُمْ ثُمَّ يَضَعُ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى**"(٢٣٦)، وهنا ينهى الرسول أصحابه عن الاستلقاء ظهرًا ووضع إحدى الرجلين على الأخرى، وممّا يجذب الانتباه هنا أن الحديث الأوّل يتّضح منه أن الرسول ﷺ قد استلقى على ظهره ووضع إحدى رجليه على الأخرى، بيد أنه في الروايتين التاليتين ينهى أصحابه عن النوم بهذه الطريقة! وهذا

(٢٣٥) صحيح مسلم، اللباس، ٧٣.

(٢٣٦) صحيح مسلم، اللباس، ٧٤.

الوضع وإن كان يبدو فيه تضادٌّ إلا أنه ليس كذلك، ذاك أن النبي ﷺ قد راعى جيّدًا في تلك الكيفيّة من النوم ألّا تنكشف عورته أثناء نومه، وربما يكون النبيّ ﷺ قد رأى بعض الناس لا يُراعون أو يتنبّهون لهذا الأمر؛ مما جعله ينهى عن الكيفيّة التي نام بها سابقًا لاحتمال وقوع المحذور.

ذ. إرشاداته ونصائحه ﷺ الأخرى المتعلّقة بالنوم والاستلقاء

١- فحص الفراش جيدًا قبل النوم

كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بأن يتفحّصوا فراشهم جيّدًا قبل النوم ليعرفوا ما إذا كان يحتوي على شيءٍ ضارٍّ أو لا، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**"(٢٣٧)، كان لدى أصحاب نبي الله ﷺ أماكن بسيطة للاستيطان فيها، وكانوا يعيشون حياةً متداخلةً مع حياة الصحراء، ومن ثم فإن هذا السلوك من أفضل التدابير التي يجب اتخاذها ومراعاتها بسبب وجود الحشرات الضارّة، كما أن ذلك الأمر مهمٌّ حتى في منازلنا العصريّة التي نقطنها، وعلى الأسرة التي تتمتّع بالأطفال أن تنتبه لهذا الأمر جيّدًا، ذاك أن الأطفال يتركون ألعابهم التي يلعبون بها في أيّ مكانٍ دون حساباتٍ صحّيّةٍ أو تفكيرٍ ناضجٍ، أيضًا فإنّ ربّات المنازل قد ينسون بعض الأدوات الخطرة كالإبرة وغيرها فوق الفراش، ومن ثم علينا فحص الفراش جيّدًا قبل النوم؛ إذا كنا لا نريد مواجهة نهايةٍ سيّئةٍ خطرةٍ.

(٢٣٧) صحيح البخاري، الدعوات، ٩.

٢- عدم المبيت في مكانٍ لا يأمن فيه على نفسه

نهى النبي ﷺ عن المبيت في أماكن خطرة مثل السطح الذي ليس له أطراف حماية، وذلك أن الإنسان في نومه قد يتحرّك دون أن يدري فيسقط من مكانه، ففي روايةٍ عن عبد الرحمن بن عليّ ﷺ -يعني ابن شيبان- قال: قال رسول الله ﷺ: "**مَنْ بَاتَ عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ لَيْسَ لَهُ حِجَارٌ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ**"(٢٣٨)، فيجب على الإنسان أن يأخذ حذره ثمّ يتوكّل على الله، وهذا ما يسمّى بالتوكل، فمن نام في مكانٍ لا أمان له أو قد يتقلّب فيقع منه؛ ثم تقلّب فعلًا أثناء نومه وسقط فلا يلومنّ إلا نفسه، ولا يحملُ أحدٌ مسؤوليّة موته، ومع الأسف فإنّ بعض الناس في بعض المناطق ينامون في شهور الصيف على الأسطح التي لا حظار لها، وقد ينجم عن ذلك حوادث وفاةٍ، لذلك ينبغي لنا الحذر والتّنبّه جيّدًا واتّباع أوامر النبي ﷺ في هذا الشأن.

٣- الدعاء عند النوم وعند الاستيقاظ

كان الرسول ﷺ دومًا يدعو عند النوم وعند الاستيقاظ من النوم، فعَنْ حُذَيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: **بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا**، وَإِذَا قَامَ قَالَ: **الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**"(٢٣٩)، كما كان ﷺ عندما يأوي إلى فراشه كلّ ليلةٍ يقرأ المعوّذتين والإخلاص، فعَنْ عَائِشَةَ ﷺ: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيلَةٍ جَمَعَ كَفَّيهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا؛ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ وقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"(٢٤٠).

(٢٣٨) سنن أبي داود، الأدب، ٩٥.

(٢٣٩) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، ٧.

(٢٤٠) صحيح البخاري، فضائل القرآن، ١٤؛ سنن أبي داود، الأدب، ٩٧- ٩٨.

كان الحبيب ﷺ يوصي بالدعاء

وقد حثّ الرسول ﷺ الناس على الدعاء والتضرّع، وأنّ من ينام دون أن يذكر اسم الله فقد نقص عمله، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ''**مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ، وَمَنْ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ**''(٢٤١).

أمره ﷺ للسيدة فاطمة بأن تدعو قبل النوم

عَنْ عَلِيٍّ كَرَّم الله وجهه ''أَنَّ فَاطِمَةَ ﷺ شَكَتْ مَا تَلْقَى فِي يَدِهَا مِنْ الرَّحَى فَأَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ تَسْأَلُهُ خَادِمًا فَلَمْ تَجِدْهُ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ، قَالَ: فَجَاءَنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا، فَذَهَبْتُ أَقُومُ، فَقَالَ ﷺ: **مَكَانَكِ**، فَجَلَسَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيهِ عَلَى صَدْرِي، فَقَالَ ﷺ: **أَلَا أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا أَوْ أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فَكَبِّرَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ**''(٢٤٢)، وهناك رواية أخرى تنصّ على أن يكون التكبيرُ أربعًا وثلاثين.

وفي الختام فإننا نستطيع أن نوجز آداب النوم النبويّة التي ذكرناها آنفًا كالتالي:

- يجب علينا أن نتأكّد من سلامة الفراش من أي مُضرٍّ أو مُؤذٍ.
- وأن نتوضّأ قبل النوم.
- وأن نكبّر ونسبّح ونحمد الله ثلاثًا وثلاثين مرّةً.

(٢٤١) سنن أبي داود، الأدب، ٢٤، ومعنى كلمة "ترة" النقص، أو التّبعة والمساءلة والحسرة.

(٢٤٢) صحيح البخاري، الدعوات، ١١.

- وأن ندعو الله ونقرأ بعض الآيات القرآنيّة ثمّ ننفثُ في الكفّين ونمسح ما استقبلنا من جسدنا.

- وأن ننام على الشقّ الأيمن.

- وأن نضع كفّنا الأيمن تحت خدّنا الأيمن.

- وألا ننام على بطننا.

- وأن نعتاد على الاستيقاظِ ليلًا والصلاة والدعاء.

- وأن نراعي عدم النوم في الأماكن الخطرة.